

ليفناس نحو أنطولوجيا مغايرة:

1. هيدغر ونقطة منعطف ليفناس:

إن كان هيدغر فيلسوف الكينونة بامتياز، والحامل لمشاغلها ومشاكلها، إلا أنه لا يمكننا إنكار إسهاماته فيما يخص سؤال الموجود، ليبدو أن هناك خطين متوازيين بين هيدغر وليفناس لا يلتقيان: الأول منشغل بالموجود والثاني بالموجود، إلا أن الأمر ليس كذلك بالضبط، إذ أن فلسفة ليفناس مستوحاة من: أولاً المنهج الظاهري ل هوسارل، وثانياً من أنطولوجيا هيدغر، إلا أن ليفناس توقف عند نقطة أشار إليها هيدغر ولم يعطها الأولوية في الدراسة بالمقارنة مع فلسفته حول الوجود.

ويؤكد ليفناس على الرؤية الأخلاقية بقوله: "فإنني أقر على عكس هيدغر، بأن الفلسفة يمكنها أن تكون أخلاقية مثلما يمكنها أن تكون أنطولوجية"، وهذا ما يجعل الاغتراب عن الذات عند سارتر ونسيان الآخر عند ليفناس، يشابه إلى حد ما نسيان الوجود عند هيدغر" (Bernard, W. 2006 :172)

"نعم، هناك عند ليفناس فلسفة " شبه انطولوجية"(quasi_ ontologie)، التي يمكن تسميتها " ما بعد الأخلاق"(post_ éthique) ... إنها في مفهومي، أخلاق المسؤولية (L'éthique de la responsabilité) "يصرح بول ريكور. (Ricoeur, p. 1997 :35).

لا ينبغي أن نغفل بأن هيدغر في "رسالة حول النزعة الإنسانية" قد تحدث عن العلاقات الإنسانية ومفهوم الوجه الإنساني وفاعلية الحوار المنطوق، كأهم واسطة تجمع بين الذات الإنسانية، إنها الواسطة اللغوية. ففي كتابات هيدغر الأولى اهتم بالموجود وعيانه من خلال فلسفة اللغة والحوار.

ذلك لأن الحوار، هو شكل الخطاب الذي تتجلى فيه أكثر ما تتجلى العلاقة بين الذات فمن خلاله تعود الذات لامتلاك ذاتها باعتبارها مختلفة، وعليها أن تعرف بنفسها للآخر، الذي يغيرها هو الآخر. ليكون الحوار هنا هو حوار مع الاختلاف، ومهمة التعريف بالنفس وبخصوصيتها، لدرجة تجعل الآخر يسمع وينصت، أي يستجيب بقبوله الاندراج كطرف في الحوار يسعى هو الآخر التعريف بمهويته. وهذا ما يدعوه هيدغر بـ "محنة الغريب" (بوبلان، ك. 2007: 39)

بينما كتابات هيدغر الثانية والثالثة، فقد كانت حول "الدازين" إذ هيمن الوجود على دراساته الأخيرة، مما جعل ليفناس يكمل من حيث بدأ هيدغر. فكان هناك لقاء فكري وتأخذ معرفي وتضاييف، حدث بعده تحول وانعطاف. في الحقيقة هو اختيار لوجهة الموجود على حساب الوجود " حيث أن فكرة المنعطف هي قبل كل شيء لقاء، أي هي أيضاً احتفاء بالغيرية في الذات" (بوبلان، ك. 2007 :40).

وقد سبق وقلنا أن الغيرية تتأسس على الاختلاف، وعلى كل ما يجعل الآخر يتميّز به علي، إلا أن هيدغر هنا لا يتوقف عند العلاقة الأخلاقية التي ينبغي أن تجمع بين "الأنا" و"الآخر"، وإنما يدرس العلاقة التي تجعلهما يتواصلان فكرياً ومعرفياً، والوسيط الذي يعبر بالأفكار باتجاه الآخر ما هو إلا "اللغة" " إن الغيرية تقوم أولاً على الاختلاف،

على هذا الذي _ بين اثنين _ يسمح بمسافة الحوار والتفاعل والتحفيز، ولكن يسمح بالإصغاء أيضا، فالغيرية هي الآخر، هذا الآخر الذي لسته، وبذلك فهو هويّتي، فرادتي (...). فالغيرية في هذا مولده للعلاقة". (بولان، ك. 2007: 37).

إذن الذات تكتشف ذاتها، وتعود لاستعادة ملكيتها لخصوصيتها، عندما تتشارك مع الآخر المختلف عنها في حوار يفصح عن الهويات، وتجعلها تمارس اختلافها وتكرس لهويتها، إن هذه العلاقة بين "الأنا" و"الأنث"، علاقة معرفية ماهوية محضمة، لا تركز على الأخلاق السلوكية، بقدر ما تركز على أدبيات الحوار الذي يستجوب الإصغاء لصوت الآخر والتعرف على فكره. هذا ما جعل الجدل الذي يوظفه ليفناس "بعيد كل البعد عن الجدل السلي بالمعنى السارترى" (Bernard, W. 2006 173).

وقد ركز هيدغر في مسألة العلاقة مع الوجود على واسطة اللغة وعلى الحوار، كوسيط يسمح بتبادل الأفكار وانصهارها، كشرط أساسي لاكتمال الوجود، حيث لا غيرية، ولا حوار معناه انتقاص الوجود وعدم اكتماله لأن المعاني هنا تبقى غير منكشفة. إن للغة الحوارية التأويلية الدور الكبير في عملية الانكشاف التي تتيحها العلاقة مع غيرية "الآخر" "من دون الآخر لا كلام ولا فكر ولا عالم، إنه عدم اكتمال الوجود، والغير هو الاكتمال". (بولان، ك. 2007: 38).

ولأن المنطوقات والمكتوبات قد هيمنت على دراسة هيدغر، فقد نظر هيدغر للآخر على أساس أنه شريك في تجلي الحقائق من خلال ملكة اللغة. وهذا ما جعل انشغال هيدغر باللغة التواصلية والتأويلية يطغى على انشغال الأخلاق، بل لا حديث إلا عن أخلاقيات الحوار وتحريجات ونحت اللغة المعبرة عن الوجود. إذ أن الصمت هو انعدام الوجود.

وجهة الفكر هي الآخر دائما، لأن هذا الآخر هو من يمكنه أن يؤسس الفضاء الذي يصبح فيه الكلام ممكنا، سواء كان هذا الآخر هو أنا كما تهيباً لي صوري في عيني، أو ذلك الآخر الذي هو صديقي، أو أخي أو أبي، أو أستاذي، والذي نجد منه أو هناك في ثنايا فكر هيدغر كأنما للتذكير بوجود الغير. ولنذكر بالفعل أن نسيان الوجود هو أيضا نسيان الغير، ولو أن فردانية الأنا (Solipsisme) شكل أساسي في فكر هيدغر. (بولان، ك. 2007: 38).

فإذا كان نسيان الوجود هو أيضا نسيان للغير، فإن هذا الغير هو أيضا الوجود إلى حد ما. إن وجود الآخر يهيئ الأرضية لبداية الكلام، الحوار وبداية الكتابة أو القراءة، إذا كان الآخر هنا نصا لغويا، فلا آخر الإنساني هنا ضرورة التحوّل نحو ذاته والذوات الآخر من أجل اكتمال الوجود وانكشافه، ولذلك يتجه الفكر دائما صوب "الآخر" ليكشف عن هويّته، كما يكشف عن غيرية هذا "الآخر". إذن هذا الأخير هو "الوجهة" (Adresse) التي تستدرج الفكر من خلال غواية اختلافها، فيستجيب لها ويتوجه نحوها مسائلا ومحاورا ومؤسسا ومولدا للأفكار، منطوقة كانت أم مكتوبة.

2. ليفناس، نحو أنطولوجيا أخلاقية:

إذا كان بالنسبة لهيدغر العودة إلى الوجود من حيث هو موجود، يعني ترك الوجود يوجد وعدم نسيانه أو تركه على هامش السؤال الفلسفي. وبالتالي ضرورة فهمه على أنه مستقل عن الإدراك الذي يكشفه ويدركه، ويجعله يقدم الموجود نفسه كموجود وليس فقط كموضوع، ليبي في الأخير علاقة أنطولوجية مع الآخر. إذا كان الأمر كذلك عند هيدغر، فإن ليفناس يعترض متسائلا:

" أيتعلق الأمر في علاقتنا بالغير بتركه يوجد؟! ألا تتم استقلاليته في دوره كمحاور؟! أنفهم ذلك الذي نتحدث معه في وجوده الخاص؟! أبدا!، الغير ليس موضوع فهم أولا، ثم محاور ثانيا، إن العلاقتين تختلطان فيما بينها، فهم الغير لا ينفصل عن استحضاره أو استدعائه (ليفناس، إ. 2007: ص64)

ذلك لأن للإنسان كيان مستقل ووجود مغاير، فعلاقتنا به لا تستوجب ضرورة فهمه أو إدراكه أو استيعابه، كما نعمل بالوجود عامة وموجوداته. بل العلاقة الأخلاقية هي التي تلزمنا بالحديث معه على غيريته ودون معرفته معرفة مسبقة، مع توضيح وتفسير طبيعة اللقاء الذي جمع بينهما بقبول ذلك التلاقي، والأخذ بعين الاعتبار هذا الآخر الذي هو أمامي "إن العلاقة مع الآخر علاقة لاتبادية، أنا مسؤول من أجل الآخر دون انتظار مقابل لذلك". (Richard A. C. 2006 :67)

إذن وجود الإنسان لا يتوقف عند كونه موجود فحسب، بل وجوده يفرض على الآخرين التجاوب والتعامل معه في علاقة أخلاقية الزامية، مما يجعله شريك وطرف في العلاقة التفاعلية التي تعتمد اللغة كوسيط للتلاقي، لتظهر فعالية التحوار أو التخاطب " (...) الشخص الذي تربطني وإياه علاقة أسميه وجود (...) ولا أفكر فقط في أنه موجود، بل أتحدث معه، إنه شريكي داخل هذه العلاقة". (ليفناس، إ. 2007: 65)

أي على "الأنا" الاستغناء عن طبيعة العلاقة السائدة، التي تفترض فهم الموجود الإنساني قبل أن يربطه به أي علاقة، إذ عليه التعامل مع أي شخص يلاقيه ويضطر أخلاقيا للتعامل معه دونما أن يكون من معارفك أو من المقربين منه.

"إن أهم علاقة يجعلها ليفناس أساسا لكل العلاقات الأخرى بين "الأنا" و"الآخر"، بكل تحمله ومسؤوليته وغناه مع الآخر "الوجه"، بكل فقره وسلطته على الأنا، تلك العلاقة الخطائية التي تتأسس على المنطوق. فالمنطوق طريقة لتحية الغير، فمن الصعب البقاء صامتين أمام شخص يتكلم (سواريت، ب. 2004: 380) إن التحية هنا هي بمثابة استدعاء ونداء، مما يلزم بالاستجابة له والاجابة عليه، "فيستحيل على الأنا قول "لا". إنني شريك في علاقة تجعلني أقول: "هاأناذا"، أمربي.. (Lévinas, E 1995: 115)

من الاستحالة أن نكون في مواجهة الغير دون التحدث معه، وهنا توضيح لأهمية اللغة والتعبير في تحديد إحداثيات العلاقة. فتعبيري حول هذا الموجود الإنساني، هو في الحقيقة تجسيد لغوي لفهمي له، أو حتى لسوء فهمي له. العلاقة بالغير إذن ليست أنطولوجيا، هذه العلاقة لا تختزل في تمثّل الغير، وإنما في استحضاره، حيث لا يكون

الاستحضار تاليا للفهم. ولا تكون واسطة العلاقة بين الأنا والأنت هي التمثل^(*) (Représentation) ، لأن هذا الأخير متغير وغير معبر عن الراهن الواقعي، في حين عند التمثل الذهني أنا لا أرى الوجه كصورة، تلك التي تمتلك خصوصية وكيفية ذلك الوجود: جميل، مرهق، أنا لا أرى جلده. وبالتالي التمثل غير الواقعي الراهن لا يجسد حالة الوجه الحقيقية. (Huneman, P. Kulich, E 1997: 134)

يقول ليفناس في العلاقة بين الأنا والآخر أنها: "علاقة ارتباط أو التحام الواحد بالآخر بالرغم من اختلافهم، وقبول ائتلاف الاختلاف في الحاضر، الأنا يعرف الآخر، ويعرف من خلاله، كل واحد هو دلالة على الآخر" (Lévinas, E. 1987: 10.)

3. الأنا الأخلاقي:

تحدد المسؤولية الأخلاقية لـ"الأنا" اتجاه الآخر، عندما يتنازل الأنا عن التمركز الأناني حول ذاته ويسمح للآخر بالتشارك معه، بل ويصل إلى درجة التخلي عن امتيازاته لصالح الآخر. يقول ليفناس " فإن مسؤوليتي المحتمية والتي لا جدال فيها اتجاه الآخر، هي التي تجعل مني أنا فرديا بل إنني أصبح أنا مسؤولا أو أخلاقيا، بالقدر الذي أقبل فيها أن أتنازل أو أحلج من مكاني _ أن أتخلي عن وضعيتي المركزية _ لفائدة الآخر الضعيف". (رتشارد، ك. 21:2007)

ولأن الأنا لا معنى لوجوده دون الآخر، نجده يعيش في حالة من القلق على حقوق الغير وعلى حياتهم لدرجة أنها تتساءل عن أحقية وجودها المعايير، وقد يكون وجودها هو الأفضل في مقابل وجود الآخرين فتسعى إلى طلب الصفح من الآخرين، كون أن لها كينونة خاصة بها ومفردة. فقد يجد المرء نفسه مضطرا إلى طلب الصفح من رفيقه لأنه أحسن منه، ولأنه يستشعر بأن تلك الأفضلية، تشعر الآخر بالإحباط أو بالاجدوى. وقد يطلب الصفح من الوالدين أو من الحبيب، لأنه أحيانا عطف الأنا وإيثارها وجدارتها، تقلق الآخر ويجعله يتساءل: لماذا لم أكن أنا كذلك؟! لماذا لم أفعل أنا ذلك؟!

فلذلك تقول الأنا للآخر: معذرة، سامحني لأني أحسن منك، أو لأني أحببتك أو لأني سبقتك للخير؟! أو لأني بمثابة عنصر تحدي بالنسبة إليك، أو عامل ضاغط يرغمك على مسايرة ما لست عليه، أو ما لا تطيقه وتستطيعه. لم يكن قصدي إشعارك بذلك الذنب أو بالدونية.

"فالأنا الأخلاقي هو وجود يتساءل عما إذا كان له الحق في الوجود، ويطلب من الآخر أن يسامحه على أن له كينونته الخاصة" (رتشارد، ك. 21:2007)

إن ليفناس هنا يقدم طرحا أخلاقيا رومنسيا لمفهوم "الذات" في تعاملها مع "الآخر" ويتجاوز تلك التأويلات التقليدية لها والتي لا علاقة لها بالتأويل اللانطولوجي (Meontologie) للذاتية، وهذا ما يذكره ليفناس في مؤلفه "الوجود المعابر" الذي يتعارض في رؤيته مع منطق النزعة البنيوية حول الذات، والذي يفترض موت الذات ويتموقع في البنات المكونة لجسد النص أو الوجود عامة. إنها عودة إلى الذات، لكن بمنطق آخر أو من خلال وجود معابر لما

كانت تعرف من خلالها. حيث يستشعر الأنا مسؤوليته اتجاه الآخر عندما يتجلى هذا الأخير " إن قرابة الآخر، هي أصل كل مساءلة للأنا" (Lévinas, E.1995: 110)

يقول ليفناس: " في موروثنا الروحي، حب القريب يتوافق بكل تأكيد مع الحياة الدينية، إلا أنه يكون المطلب الثاني بعد حب الإله(*)". فلقاء الأنا بالآخر عبر الوجه، يحمل أثر حركته الأكثر استقامة والأكثر إلزاما. هذا ما نعني به فلسفة الحوار (Philosophie du dialogue) " (Lévinas, E.1995:105)

إن الذات التي يقصدها ليفناس هي ذات أخلاقية مستعدة للتضحية بحقوقها وحرّياتها أمام نداءات "الآخر" وحاجياته، لتشعر "الأنا" بالإلزام نحو "الآخر" فتقوم سلوكها ومعاملاتها، بمقتضى ما يتناسب ومستلزمات الآخرين." إن نمط الوجود من أجل "الآخر"، معناه أنني مسؤول من أجل "الآخر"، وهذا شيء مروع، ذلك معناه، إذا فعل "الآخر" أي شيء، فأنا من سيكون المسؤول (...). عندما تلتقي مع كائن إنساني لن تستطيع تركه". (Lévinas, 115)

E. 1995:

هنا تظهر الحرية الذاتية، مسألة ثانوية بالمقارنة مع أسبقية الآخرين " إن حرية الذات ليست هي القيمة الأسمى أو الأسبق، فتبعية استجابتنا للآخر الإنساني أو الإلهي كالأخر مطلق، تسبق استقلالية حرّيتنا الذاتية. في اللحظة التي أعترف فيها بأنني أنا المسؤول، أقبل بأن تكون حرّيتي مسبوقه بالإلزام يأتي من الآخر". (رتشارد، ك. 2007: 22)

إنها مسألة الحرية والمسؤولية وطبيعة تفاعلها في إطار الأنا الأخلاقي، حيث الوعي بمسؤولية الأنا يجعلها في موضع إلزامي أخلاقي اتجاه الآخر، إلى درجة تسبب هذا الإلزام نحو الآخرين على الحرية الذاتية، وما ترغب الأنا في إشباعها من حقوق وحتى رغبات. إنها لحظات من تعالي الذات الأخلاقية التي تروض وتكبح رغبات الأنا عند تقاطعها مع الزمامات الآخر. " إن المسؤولية تجرد الأنا" من إمبراطوريته وأنانيته" (Lévinas, E 1987: 53)

إن الوعي بالمسؤولية يستدعي مباشرة تدخل "الأنا" الأخلاقي الإلزامي، وكأننا نتحدث هنا عن جدلية إثنية كثيرا ما أشادت بها الفلسفات القديمة إنهما: جدلية الخير والشر والصراع المتبادل بينهما، الذي حينما يرحح كفة الأول، وحينما آخر، يغلب كفة الآخر، على حسب حركية التحدي والاستجابة. فحضور الأول يستدعي الثاني والعكس صحيح، لكن في صيرورة غير ثابتة بل متحوّلة، وكأننا أيضا نتحدث عن أساس المعتقدات الدينية الذي تتمحور حول جدلية التحريض الشيطاني والنصح الملائكي.

إنها مسألة " زمنية النداء والاستدعاء، وبما أن هناك استجابة وإجابة، إذن فهذا يدل على أن هناك على الدوام تأخير. وبما أن النداء يسبق دائما الإجابة، فإن النداء يسبقني على الدوام". (مصطفى كمال، ف. 2007: 146)

أن تكون مسؤولا، هو أن تنصت للآخر وتجيبه دون التحجج بأي أذار أو استثناءات. فما الكلام الذي يمكن أن يوجهه لي الآخر؟ إنه منع قتله. يمكن أن نقتل، هذا يحدث، لأن الإلزام الأخلاقي ليس ضرورة أنطولوجية. هذا

الالزام، "لن تقتل" (Tu ne tueras point!) هو مطالبة، تلك التي تعني " عليك بإحياء قريبك " (Tu feras vivre ton prochain!) (Huneman, p. 1997 :136) .

قائمة الهوامش:

(1) Bernard Waldenfels, La liberté face à l'autre, Lévinas et Sartre : ontologie et éthique en conflit (Cahiers D'Etudes Lévinassiennes, Lévinas-Sarter), N° 5, Edition Gilles Hanus, Paris, France 2006 p172 .

(2) Paul Ricoeur, Autrement, Lecture d'autrement qu'être ou au-delà de l'essence d'Emmanuel Lévinas, Presses Universitaire De France, France, 1997 p35.

(3) كاتي بوبلان، لقاءات الغيرية عند هيدغر الثاني، تر، عاشور فتي، (مجلة آيس)، العدد 02، السداسي الأول، دار الصحافة، القبة، الجزائر، 2007، ص 39.

(4) المرجع نفسه: ص 40.

(5) المرجع نفسه: ص 37.

(6) Bernard Waldenfels, La liberté face à l'autre, Lévinas et Sartre : ontologie et éthique en conflit (Cahiers D'Etudes Lévinassiennes, Lévinas-Sarter), p173.

(7) كاتي بوبلان، لقاءات الغيرية عند هيدغر الثاني (مجلة آيس)، العدد 02، السداسي الأول، دار الصحافة، القبة، الجزائر، 2007. ص 38.

(8) المرجع نفسه: ص 38.

(9) ليفناس، هل للأنتولوجيا من أساس؟ (مجلة أوراق فلسفية، إيمانويل ليفيناس - عادل ضاهر)، العدد 17، القاهرة، مصر، 2007، ص 64.

(10) Richard A. Cohen, Chooing and the chosen: Sartre and Lévinas (Cahiers D'Etudes Lévinassiennes, Lévinas-Sarter), N° 5, Edition Gilles Hanus, Paris, France 2006, p 67 .

(11) ليفناس، هل للأنتولوجيا من أساس؟: ص 65.

(12) بن عمر، سواريت، الحوار بين الذات والآخر في فلسفة ليفناس، (مجلة أوراق فلسفية) العدد 13، 2004، ص 380.

(13) Emmanuel Lévinas, Altérité et Transcendance, Fata Morgana, Paris, 1995, p115.

(*) التمثّل (Représentation)، لفظ مشتق من الكلمة اللاتينية (Repraentotios) والتي تعني فعل الوضع أمام الأعين باستحضار الصورة ذهنيا.

-Voir, Philippe Huneman, Estelle Kulich, Introduction à la phénoménologie, p134.

(14) Philippe Huneman, Estelle Kulich, Introduction à la phénoménologie, Edit ARAND COLIN, Paris, 1997, p134.

(15) Emmanuel Lévinas, Humanisme De L'Autre Homme, biblio essais, Saint-Denis, Paris, France, 1987. p 10.

(16) رتشارد كيرني، مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس، من الفينومينولوجيا إلى الإتيقا، حوار مع ليفيناس، ص 21.

(17) المرجع نفسه: ص 21.

(18) Emmanuel Lévinas, Altérité et transcendance, 110.

(*) يوظف ليفيناس قول باسكال عن حب الإله: "إذا كان هناك إله، فلا ينبغي أن نحب إلا إياه، وليس المخلوقات العابرة".

Voir : Emmanuel Lévinas, Altérité et transcendance, p106.

(19) Ibid, p 105.

(20) Ibid, p115.

(21) رتشارد كيرني، مدخل إلى فلسفة إيمانويل ليفيناس، من الفينومينولوجيا إلى الإتيقا، حوار مع ليفيناس، ص 22.

(22) Emmanuel Lévinas, Humanisme De L'Autre Homme, p 53.

(23) فرحات، مصطفى كمال، صروف "الكينونة" بين ليفيناس وهيدغر، حرب الإتيقا ضد الأنطولوجيا، ص 146.

(24) Philippe Huneman, Estelle Kulich, Introduction à la phénoménologie, p136.